بين الفعل السياسي والسلوك السياسي
إضاءة مفاهيمية

د. سميرة سعيد(*)

تعتبر السياسة عملية من عمليات صنع القرار داخل المجتمعات، إذ تحوي مجموعة من القيّم المادية والمعنوية. تتحقّق هذه العملية عن طريق مجموعة أهداف وخطط جماعات ومؤسسات بحسب إيديولوجيات معينة محلية، إقليمية أو دولية خاضعة لوجهات نظر سياسية أو مدارس فكرية سياسية في العالم (الفرنسية،الامريكية،البريطانية والألمانية)، إذ يدورون في فلك الفكر الليبرالي الذي تنعكس مبادئه الرئيسية على العدالة والحرية الفردية. إلّا أن فهم هذين المبدأين يختلف باختلاف المجتمعات ولكن غالبا ما يتمّ ربطهما بالديمقراطية وحرية الدين والرأسمالية وحقوق الانسان. ويعزى تأسيس الليبرالية الى الفيلسوف جان لوك مستندا الى نظرية **العقد الاجتماعي**، بحجة أن كل انسان له حقّ طبيعي في الحياة والحرية. أما على صعيد الحكومات فمضمونه يكمّن في إحداث تغيير الأنظمة بهدف التحسين والتقدّم(١).

ومن الجدير الإشارة الى أن الفكر الليبرالي هو إيديولوجية، وإن الليبرالية قد تحوّلت الى إيديولوجية(٢)، وينطلق هذا الفكر من حرية الفرد، في حين أن الفكر الايديولوجي الشمولي(الإتحاد السوفياتي سابقا) والدولة الدينية هما أيضا إيديولوجية، ينطلقان من الجماعة الاجتماعية المتمثّلة في حزب معين أو جماعة، وتكون فيه الدولة تحت سلطة محدّدة لا تقبّل أية معارضة كونها متشكّلة من قناعة راسخة لديها بأنها الوحيدة التي تمتلك المعرفة والإدراك الصحيحين لمجريات وللمشاكل الاجتماعية والمجتمعية إنطلاقا من إيديولوجية معينة سواء كانت دينية، حزبية أو عرقية بحيث

(*) دكتورة في القانون الدولي في الجامعة اللبنانية.

(١) محمد مروان تاريخ دخول الموقع ٢٠٢٠/٨/١١ https://maawdoo32018.

(٢) عبد الغني عماد، سوسيولوجيا الثقافة، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٦.

تكون الدافع الأساسي في إدارة الحكم[٣].

وما يميّز هاتين الايديولوجيتين هو أن الفكر الليبرالي يبدي مرونة أكثر في تطوير هذه النظرية بشكل عملاني، في حين أن الفكر الشمولي يتميّز بأنه إيديولوجية مغلقة لا تقبل التطوير. هذا الخلاف الفكري يؤدي الى إختلاف بنيوي في الفكر السياسي الممارس على المستوى النظري والعملي[٤].

إلّا أن الإتجاهات الفكرية في مفهوم الدولة (أي السلطة الحاكمة) قد تباينت عند ماركس باعتبارها حتميّة من جهة، ومجرد نتيجة لتناقضات في المجتمع من جهة أخرى.وهو لم يفرّق بين الدولتين القديمة والحديثة من حيث إستثمارها للعبيد، أو للعمل المأجور من قبل رأس المال. فالدولة برأي ماركس إذن هي مؤسسة طبقية ووسيلة في يد البورجوازية لفرض سيطرتها وإحكام قبضتها على البروليتاريا واستغلالها[٥].

أما بالنسبة الى مكيافيلي فقد ربط الفلسفة السياسية بالحياة السياسية، وذلك من خلال تصوّر معيّن للدولة والسلطة لديه وما يتبعها من مفاهيم كالعدالة والحق والسيادة والشعب، إذ تبلورت السياسة لديه « كفنّ لتدبير الإضطرابات الناجمة عن حراك وصراعات شعب»، باعتبارها حالة تعبّر عن شخصيات تلك الشعوب وعن إعتبار القوانين والمؤسسات هي ثمرة لهذه الاضطرابات[٦]. وهنا نرى أن مكيافيلي يقارب في رؤيته المقاربة الجمعية، أي الفكر الشمولي (أي الجماعة لا الفرد).

هذا الكلام يقودنا الى الحديث عن الفعل السياسي الذي يعتبر المحوّر الأساسي الذي يرتكز عليه السلوك الاجتماعي. وهنا نجد أنفسنا أمام تعريفيي الفعل الاجتماعي والسلوك الاجتماعي ولعله من أبرز من عرّف الفعل الاجتماعي هو السوسيولوجي ماكس فيبرMax weber إذ قال « بأنه الفعل الذي يحمل معنى ويأخذ فيه الفاعل سواء كان فرداً أم جماعة، المقابلين الاخرين سواء كانوا فرداً أم جماعة بعين الاعتبار متضمّنا توجّهه هذا الإفتراض بأن الأفعال الفردية هي أساس ما يتشكّل من بناءات ونظم وجماعات، وكذلك يتضمّن حقيقة، وأن حقيقة الواقع الاجتماعي تتجلّى في المعاني التي يحملها الفاعلون و اكتشاف تلك الحقيقة مرتبط بمحاولة فهمها بالتأويل والاستنباط»[٧]، وقد صنّف الفعل الاجتماعي الى أربعة أنواع هي[٨]:

أ – الفعل الاجتماعي العقلاني المرتبط بغاية: أي يقع لقصدّ ما، وقد أعطاه تسميات أخرى كالفعل الغائي أو الذرائعي أو الوسيلي.

ب – الفعل الاجتماعي العقلاني المرتبط بقيمة: أي أن الفاعل يحتكم عند اختياره لمسار الفعل الى قيمة إجتماعية موجّهة.

---

(٣) Al-akhbar.com/opinion إعلامي سوري تاريخ زيارة الموقع ٢٠٢٠/٨/١١.

(٤) يميّز اندرو هيود في كتابه «مدخل الى الايديولوجيات السياسية»، بين الايديولوجيات الكلاسيكية والايديولوجيات الحديثة لليبرالية، ويرى في الايديولوجيات الكلاسيكية أربعة أنواع من الايديولوجيات هي: الليبرالية المحافظة كرد فعل على الثورة الفرنسية والتحديث الاجتماعي في الغرب، والاشتراكية والقومية، وجميعها باتت تشكّل متخيلا جمعيا.

(٥) محمد الهزاط، محاضرات في تاريخ الأفكار السياسية، مطبعة وراقة سجلماسة مكناس، ٢٠١٨.

(٦) https://3alamphilo.blogspot.com > m... - الفكر السياسي عند مكيافيلي عالم الفلسفة.

(٧) ماكس فيبر، مفاهيم أساسية في علم الاجتماع، ترجمة صالح هلال، مراجعة وتقديم محمد الجوهري، المركز القومي للترجمة،القاهرة ٢٠١١.

(٨) معن خليل، معجم علم الاجتماع المعاصر، دار الشروق، عمان، ٢٠٠٦.

ج – الفعل الاجتماعي التقليدي: هو الذي توجّه إختيارات الفاعل فيه، تقاليد وأعراف وقيّم الجماعة التي ينتمي إليها.

د – الفعل الاجتماعي الوجداني: هو الفعل الذي توجّهه المشاعر والعواطف.

هذا بالإضافة الى تصنيفات تالكوت بارسنز Talcott Parsons، التي تتشابه من حيث المضمون مع تصنيفات ماكس فيبر، وقد اعتبر الفعل الاجتماعي وحدة التحليل الأساسية في أي نسق إجتماعي وقد صنّفها الى:

أ – الفعل الاجتماعي الوسيلي: الموجّه لتحقيق غاية ويرتبط بمستوى إدراك الفاعل.

ب – الفعل الاجتماعي التعبيري: بما يتضمّن من تعبير عن حالآت الرضا والاعتبار ويعبّر عن الحالة الوجدانية للفاعل.

ج – الفعل الاجتماعي القيمي: الذي يرتبط بالمعايير والقيم والجانب الخلقي لدى الجماعة ولهذا فهو يرتبط بالنظام وينطوي معناه الى درجة ما بالتكامل في النظام الاجتماعي.

بعد استعراض هذه التعريفات للفعل الاجتماعي عند كل من فيبر وبارسنز نلآحظ أن هناك أوجه شبه كبيرة من حيث المضمون. كما وأن هناك تطابقاً واضحاً بين مضمون كل من التعريف الثاني (العقلاني المنطلق في مساره من قيمة إجتماعية) وبين النظام السياسي السائد في الغرب المعتمد على منظومة القيم الفردية التي أنتجت بعد الثورة الفرنسية والتي تمجّد الفرد باعتباره قيمة. وبين مضمون التعريف الثالث (الفعل السياسي التقليدي الذي يوجّه إختيارات الفاعل فيه تقاليد وأعراف وقيم الجماعة التي ينتمي إليها) وبين النظام السياسي السائد في مجتمعاتنا التي لا زالت تسودها الذهنية الجماعية أم العقلية الجماعية التي يتماهى الفرد في الجماعة حيث لا حقوق له، وإنما عليه واجبات، ودائما في هذه المجتمعات تتقدّم مصلحة الجماعة على المصالح الفردية. كما وإن هذه المجتمعات(الجماعية)تتميّز بالغرائزية والإنفعالية على حد تعبير غسان الخالد في كتابه الهابيتوس العربي[٩].

وفي السياق نفسه لا بدّ لنا من التحدّث عن الليبرالية، ولكن بصيغتها اللبنانية إنطلاقا من ديمقراطية ملتبسة منذ إعلان دولة لبنان الكبير الذي شكّل بداية خلاف بين فريقين أساسيين، وصولا الى إتفاق الطائف وما كرّسه عمليا من تجذّر لنظام طائفي مذهبي أدّى الى مزيد من الخلافات، الأمر الذي ساهم في ولادة مفهوم الديمقراطية التوافقية[١٠].

كل هذه التناقضات أدّت الى إلتباس كبير في ما يتعلّق بفهم وتطبيق تلك الليبرالية الغربية المستوردة من دون تبيئتها (لعدم وجود بيئة حاضنة) لهذا النوع المنفتح من هذه المفاهيم الغربية[١١]. الأمر الذي ساهم في حصول نوع من التزاوج بين كلتا الليبراليتين الغربية واللبنانية أدّى الى ولادة ليبرالية طوائفية مشوّهة بات هامش النخب السياسية فيها

(٩) غسان الخالد، الهابيتوس العربي، قراءة سوسيومعرفية في القيم والمفاهيم، منتدى المعارف، بيروت، ٢٠١٥.

(١٠) غسان الخالد، البدوقراطية، منتدى المعارف، بيروت، ٢٠١٢.

(١١) يعتبر جيرار ميري أن ما يميّز الليبرالية هو التفريق الذي تستند إليه بين مدار الدولة أي مدار السلطة السياسية من جهة وبين المدار الذي يمكن أن ندعوه سندا الى الموروث الفكري الذي صدرت عنه الليبرالية ذاتها ويقصد هنا الكاتب المجتمع المدني، إذ يفترض أن الدولة الليبرالية التي تتعاطى مع المصلحة العامة لا يجوز لها أن تتدخل في الشؤون الخاصة، أي في العلاقات المكوّنة للمجتمع المدني. للتوسع أنظر ايديولوجيا الانسان، إشراف فرنسوا شاتيلييه، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشرترجمة خليل أحمد خليل وسهيل القش، بيروت، ١٩٨٠.

محصورا في تقاسم الحصص، بمعنى أنها باتت تعمل للطائفة وليس للوطن. هذا الواقع السياسي أدّى الى المزيد من الفساد الواضح والفاضح، مع العلم أن هذه السلطة تعمل على إعادة إنتاج نفسها بنفسها من خلال صياغة قوانين إنتاجية تستخدم الفعل السياسي التقليدي حسب ماكس فيبر.

إنطلاقا مما تقدّم فان إشكالية البحث إنما تتمحور حول الفعل السياسي ما بين الغرب والشرق في النموذج اللبناني، وبين السلوك السياسي الممارس. وعليه فان فرضيتنا تقوم على أن الفعل السياسي الذي يتحكّم في لبنان وبناء على تصنيف ماكس فيبر المذكور أعلاه هو الفعل التقليدي الموروث وهو لم يتطوّر نحو الأفضل وإنما محكوم كما كان بالغرائزية وليس بالعقلانية. ولذلك أرى من الضروري الحديث عن الفعل السياسي والسلوك السياسي والتمييز بينهما. ومن ثم إعتماد معايير سوف أذكرها لآحقا للإعتماد عليها لتأكيد الفرضية المطروحة.

١ – الفعل السياسي

الفعل السياسي هو جزء من الفعل الاجتماعي يعبّر عن علاقة قوى بين طرفين يمارس أحدهما على الاخر نوعا من السلطة هي سلطة الحكم[١٢]. هو ذلك النشاط الذي يمارسه فرد أو مجموعة أفراد يشغلون أدوارا إجتماعية معينة يستطيعون من خلالها تنظيم الحياة في المجتمع[١٣]. كما أنه مجموع التراكمات المجتمعية المتأصلة في مجتمع ما، بمعنى أنه مجموعة من القيم الانسانية، الأخلاقية والثقافية التي هي بدورها تساهم في خلق أنماط وظواهر سلوكية محكومة بتلك القوانين. إذن هو عملية وضع وتحقيق أهداف وصنع قرارات وخطط أفراد ومؤسسات بحسب إيديولوجيات معينة وذلك من خلال قدرتها على جعل المحكوم (الشعب) يعمل أو لا يعمل أشياء سواء أراد ذلك أم لم يرد من خلال إحتكارها لوسائل الإكراه والقمع كالجيش والشرطة باعتبارها وسائل وقوى شرعية. إلّا أن مضامين هذه التعريفات لا يتناسب مع الهدف الحقيقي للفعل السياسي كما عرّفه ديفيد إيستون وهو تقسيم الموارد في المجتمع عن طريق السلطة. إلّا أن هذا التعريف طبعا لا يمتّ بصلة الى مجتمعاتنا ولا نجد له أي أثر لأن الفعل السياسي وبعد أن شوّهت معانيه وأهدافه بات مرادفا لفنون المكر والاحتيال والوصولية والانتهازية وكأني بجميع العاملين في هذا المجال باتوا ينتهجون نهج مكيافيلي وذلك من خلال عبارته الشهيرة «الغاية تبرّر الوسيلة». بمعنى آخر مفهوم الدولة بات يعني سلطة، إكراه، أي لا معاملة بالمثل[١٤].

٢ – السلوك السياسي

السلوك الإنساني بشكل عام هو آداة التغيير إذ مهما آمن الانسان بمعتقدات وقيّم ليست بالأهمية المرجوّة ما لم تتحوّل الى سلوك ينتج تغييرا معينا في البيئة المحيطة به. وقد أكّدت المدرسة السلوكية بأن السلوك هو «وحدة ظاهرة قابلة للملاآحظة وبالتالي للتحليل العلمي[١٥]. أي أنه يقصد بالسلوك» كل تصرّف حركي، لفظي، أو فعلي ظاهر محدّد زمانا ومكانا تقوم به الكائنات الحية تجاه ذواتها أو تجاه البيئة لتحقيق عملية الأقلمة بين الوجود الذاتي

(١٢) محمد الجابري، العقل السياسي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١٩٩٠،١

(١٣) كمال محمد الأسطل، السلوك السياسي والمفاهيم السلوكية http://K-astal.com/index.php?action=detail&id=254

(١٤) P. Ansart sociologie de Proudhon Paris 1967-

(١٥) السلوك السياسي والمفاهيم السلوكية ... < Politics-dz.com

والأقلمة»[١٦]. ويمكن للسلوك أن يكون موجّها تجاه الذات أو موجّها الى ما يحيط بالانسان.

أما السلوك السياسي فهو أيضا شكل من أشكال السلوك الانساني عدا أنه يركّزعلى كافة المظاهر والنشاطات المتعلقة بقيادة وتنظيم المجتمع. كما أنه ليس وحدة متجانسة من السلوكيات كالسلوك الاقتصادي، الاجتماعي، الثقافي وغيرها... إلّا أنه يمكن تحديد أهم أشكاله بما يلي:

- السلوك الانتخابي
- " التشريعي
- " الحكومي
- " القضائي
- " الحزبي
- " الحكومي الدولي وغيرها من السلوكيات[١٧].

كما وأن هناك تعريفا مختلفا لمفهوم«السلوك السياسي»، إعتمد داخل النموذج اللبناني وقد عايشه اللبنانين لثلاثة عقود من الزمن، وقد أطلق عليه غسان الخالد تسمية «الترف السياسي» لما تضمّن من نماذج وأعراف إعتمدت لثلاثة عقود من الزمن في تأليف الحكومات وذلك أثناء تولي الشهيد رفيق الحريري لتلك الحكومات، إذ تخطى عدد الوزراء الثلاثين وزيرا لبلد لا يتجاوز عدد سكانه الأربعة ملايين نسمة. هذا بالاضافة الى تمسّك القوى السياسية آنذاك بأسماء ممثليها،أو ترك إسم ما، لما كان يسمى «بإسم الربع الساعة الأخيرة»، وآخرا وليس أخيرا من نماذج هذه السلوكيات كانت «حصة رئيس الجمهورية»..

والحقيقة أن كل تلك السلوكيات يمكن تبريرها بشكل أو بآخر في زمن الاستقرار الأمني، ولكن في زمن الأزمات المتعددة الأوجه أقل ما يقال فيها أنها إستهزاء وإستخفاف بعقول الناس، لا بل هو سلوك تجاوز القيم السياسية التي تلآشت بشكل كامل من قاموس حكّام وسياسيي بلادنا.

٣ – الفاعل السياسي

يشمل مفهوم الفاعل السياسي جميع الفاعلين السياسيين الموجودين والذين وجدوا سابقا والذين سيوجدون في المستقبل. إلّا أنه وبفضل ممارسة السلطة للسلطة ومسلماتها المعرفية تقلّص هذا المفهوم وبات يقتصر على فاعل واحد هو الرئيس الذي يتبعه وبدرجات متفاوتة عدد معيّن من الفاعلين. وينظّم العلاقة بينهم شكل هرمي وخيط لا مرئي يصلهم بالرئيس. وهؤلاء الفاعلون هم النظام، الأمن، الجيش، رئيس الوزراء، الوزراء، أصحاب رأس المال، الحزب، النقابات والإتحادات على أنواعها والمؤسسات الدينية والمذهبية..ألخ[١٨].

إنطلاقا من هذه التعريفات يتضّح لنا أن هؤلاء فقط هم الفاعلون السياسيون، أما باقي أفراد المجتمع ومكوناته وجماعاته هم منفعلون فقط بممارسة فعل أولئك الفاعلين عليهم بشكل مباشر أو غير مباشر. إلّا أنه لا بدّ من الإشارة الى أن هناك نوعين من الفاعل السياسي وهما :

أ – الفاعل السياسي الفردي الذي يقوم على سلطة الحكم الواحد وسيادة الفرد الواحد. وينقسم هذا الشكل في أنظمة الحكم على الحكم (الوراثي، الديكتاتوري، الديني)، بالإضافة الى ما عرف في العصر الحديث

(١٦) تطور المدرسة السلوكية، نشأتها ومبادئها والمفاهيم... < www.politics-dz.com

(١٧) المرجع نفسه.

(١٨) عن الفاعل السياسي، الجمهورية aljumhuriya.net

بالحكم الملكي. وقد ارتبط الحكم الوراثي بانتقال الشرعية في الحكم داخل أفراد الأسرة أو القبيلة الواحدة وقد تحدّث عنه إبن خلدون «بالعصبية القبلية». كما أن الديكتاتورية قد عبّرت أيضا عن النزعة الفردية نفسها في الحكم وذلك في إبراز القوة من خلال إيديولوجية الطبقة المسيطرة ضد الطبقة المسيطر عليها. كما أن النظام الملكي لم يختلف كثيرا عن النظام الوراثي باستثناء أحقية الملك وحده في سلطة الحكم وحده دون سواه. أما بالنسبة الى الحكم الديني فقد مارسه رجال الدين في أوروبا خلال القرون الوسطى تحت ذريعة «التفويض الإلهي» ومن أبرز خصائص الحكم الفردي ما يلي:

- لا يعطي إعتبارا ولا وزنا ولا دورا للجماعة.
- لا يؤمن بالتعدّدية الحزبية أو النقابية.
- يقيّد الحريات بمختلف أشكالها.
- لا يفصل بين السلطات الثلاث التشريعية، التنفيذية والقضائية.
- يعتمد على القوة في تسيير شؤون الدولة.
- عدم مشاركة الأفراد في من يمثّله في السلطة.
- تمارس السلطة على الأفراد من دون خضوع الحاكم لها[١٩].

وبالنظر الى هذا النوع من الحكم نجد أن هناك العديد من النقاط السلبية التي تشوبه، ومنها إقصاء الآخر عن المشاركة كليا والتسلّط والقمع وجميعها باتت تشكّل معوّقات أساسية للديمقراطية المنشودة. مع العلم أن الديمقراطية لا تخلو أيضا من معوّقات مشوّهة لها[٢٠].

ب – أما في ما يتعلق بالفاعل السياسي الجمعي أو الحكم الجماعي فقد انطلق بشكل عام من مبدأ أو مفهوم الديمقراطية، إذ يقوم الشعب باختيار شخص واحد يتولى إدارة الحكم يطلق عليه الحكم الديمقراطي الذي يعبّر عن سيادة الشعب في حقوقه كالحرية والتعبير عن الرأي...الخ والتي هي من أهم ركائز هذا المفهوم[٢١](*). إذ أن السيد الحقيقي في هذا الحكم هو الشعب بحيث أن القوانين الموضوعة من قبل الدولة يخضع لها الشعب والحاكم معا. وبالتالي فان الذين توزّع عليهم السلطة التنفيذية ليسوا أسياد الشعب وإنما هم موظفون فقط وبوسع الشعب خلعهم عندما يرغب بذلك، فالمسألة إذن ليست مسألة عقد وإنما هي مسألة طاعة القانون[٢٢].

٤ – بين الفعل السياسي والسلوك السياسي: الواقعية السياسية

الواقعية السياسية هي نظرية الفلسفة السياسية التي تحاول تفسير العلاقات السياسية. وتفترض أن السلطة هي الغاية الأساسية للفعل السياسي(أو ينبغي أن تكون كذلك)، وهي تتلخّص في جوهرها في المبدأ

(١٩) الحكم الفردي أم الحكم الجماعي، منتديات الجلفة لكل الجزائريين ajelfa info > showthread.

(٢٠) كراهية الديمقراطية.

(٢١) هل يستمد الحاكم سلطته دائما من إرادة الشعب؟

(*) يبدو أن التفويض الإلهي قد عاد ليطفو على السطح مع الرئيس الاميركي السابق بوش الابن الذي وصل الى مرحلة الوحي الالهي له خصوصا في فترة حربه مع أفغانستان والعراق. وهذا ما يسمى بالكذب السياسي الذي سنتحدث عنه لآحقا، لكن من المفيد الاشارة الى أن هذا التفويض الالهي لا زال سائدا في مجتمعاتنا حيث نجد التحالف الديني في أوجه

(٢٢) هل النظام السياسي الأمثل هو الذي يعبر عن سيادة الشعب؟

السياسي الأخلاقي الذي يعتبر أن (من يملك القوة يملك الحق). وقد تكون الواقعية السياسية ممارسة من قبل شخصيات سياسية أكانت موجودة في السلطة أم لا، بمعنى أنها قد تكون بمثابة لوبي سياسي معارض مثلا، وهنا ينبغي التمييز بين الواقعية السياسية الممارسة من الأفراد بنوعيهما المشارك في السلطة أو المعارض كما ذكرت سابقا[٢٣]. في الحالة الأولى قد تتحوّل الواقعية السياسية الى إيديولوجيا سياسية للسلطة. ويمكن لنا هنا التمييز بين الواقعية السياسية الكلاسيكية والواقعية السياسية البنيوية. النوع الأول يرى منظّروه أنه يفترض بالدولة أن تراكم القوة وأن تتّخذ كل التدابير والإجراءات للحفاظ على نفسها من إعتداءات الآخر. وهنا تظهر المكيافيلية بوضوح من خلال إعتماد الواقعين الكلاسيكين على المبدأ المكيافيلي الشهير (الغاية تبرّر الوسيلة). وعليه فان هذه الدول تعيش حالة صراع وجودي ولذلك تعمل على تراكم القوة. أما الواقعية السياسية البنيوية فقد اعتمدت على تفكيك البنيان الدولي كأدآة لتحليل سلوك الدول. ويرى «كينيت والتز»، أن البنيان السياسي يتألف من ثلاثة عناصر هي شكل النظام وخصائص الوحدات الأساسية التي تعمل وفقا لمبدأ المصلحة القومية، وتوزّع القدرات بين الدول باختلاف الجغرافيا والموارد الطبيعية[٢٤].

إن الحديث عن الواقعية السياسية يقودنا الى التمييز بين المواقف السياسية والتي هي عبارة عن سلوكيات سياسية مختلفة المجالات. وتتوزّع المواقف السياسية وفق ما يشير إليه غسان الخالد، بين مواقف لحظوية ومواقف مبدأية أو استراتيجية. وما بين هذه المواقف مواقف أخرى أقل من المواقف المبدئية وأكثر من المواقف اللحظوية، وهي ما تدخل في إطار الواقعية السياسية[٢٥]. إن التغييرات التي نقع عليها أحيانا كثيرة في مواقف الدول أو الشخصيات السياسية والتي تبدو وكأنها تنازلا عن المبادىء لصالح الواقعية السياسية التي تفترضها عوامل عديدة محلية وإقليمية ودولية، وفقا للنظرية المصالحية أو الذرائعية أو وفق لمبدأ النفعية، حيث لا يمكن لهذه القوى إلّا أن تكون كذلك إنسجاما مع الواقعية السياسية التي تفرضها العوامل المحيطة والظروف السياسية والتي تقضي بطبيعة الحال الى هذه السلوك. يمكننا هنا سوق عشرات الأمثلة منها ما هو مرتبط بالصراع العربي الاسرائيلي ومسألة التطبيع مع الكيان الصهيوني حيث نجد تبدّلا نوعيا تجاه هذه المسألة. ويمكننا أيضا سوق مثلٍ آخر مرتبطٍ بالعلاقة بين إيران بالويلايات المتحدة الأميركية ففي حين تنظر كل دولة الى الأخرى على أنها العدو الأكبر والشيطان الأكبر، تتفاوض في ما بينها حول الكثير من المسائل، إنطلاقا من مبدأ يقوم على مبدأ لا عداوة مطلقة في السياسة، كما أنه لا صداقة مطلقة في السياسة باستثناء تلك العلاقة البنيوية بين الولايات المتحدة والكيان الصهيوني.

تجدر الإشارة الى أنه ليس بالضرورة أن تتنازل الدول أو الأحزاب المبدئية عن مبادئها عند ممارستها للواقعية السياسية. والمراقب لسيرورة المواقف السياسية للأشخاص أو للدول، يمكنه ملآحظة كيفية السلوكيات السياسية تجاه الكثير من القضايا اليومية أو

(٢٣) هالة، أسامة، ماذا نعرف عن الواقعية السياسية

(٢٤) طارق البيطار، الواقعية السياسية.. هل تستمر في تحديد مستقبل العالم

(٢٥) غسان الخالد، الثنائيات الثقافية، نسخة الكترونية، دار النهضة، بيروت، تشرين الأول ٢٠٢٠

الأبعد. يدخل هذا التبدّل في إطار ما يسمى بالكذب السياسي الذي سنتحدّث عنه تاليا.

٥ – الكذب السياسي

قبل الكلام عن الكذب، ولا سيما الكذب السياسي لا بدّ من تعريف الخداع باعتباره الحاوية الرئيسية للكذب، وهو يعني بحسب معجم المعاني الجامع «الغش والنصب والاحتيال»، وهناك أنواع من الخداع خداع الحواس، خداع البصر، والخداع الذي يقوم به البشر تجاه بعض، ومن صفات الإنسان الخدّاع، الغش والتملّق والتضليل [٢٦]. وعلى المستوى الفردي هناك ٣١ نوعا من أنواع الكذب[٢٧] يمارسه البشر في ما بينهم، مع العلم أن معظم الثقافات قد حذّرت منه باعتباره عمل مكروه، أما الأديان فقد اعتبرته من الذنوب ونهت عنه[٢٨]، وهو سلوك كباقي السلوكيات البشرية عادة ما يكون هادفا، إلّا أن هدفه الأساسي هو إخفاء الحقيقة عن الآخرين.هذا بالاضافة الى أن الكذب يعكس إنحلآلا في مستوى القيم الأخلاقية الشخصية والمجتمعية، أو هكذا يفترض. وبالرغم من كل هذه الأسباب لا يتوقف البشر عن هذا السلوك لا بل هم يتفننون فيه ويبررونه بطرق وأسباب مختلفة لدرجة بات يبدو جزءا أساسيا من حياتهم اليومية تجاه أنفسهم وتجاه البيئة المحيطة بهم.

وفي تناولي لموضوع الكذب السياسي سوف اعتمد على كتاب «لماذا يكذب القادة»، لمؤلفه «جون جي ميرشيمر»، والذي يميّز بين نوعين من الكذب «كذب دولي» و«كذب من قبل القادة على شعوبهم».

يعتبر الكذب الدولي سلوكاً سياسياً يصبّ في خدمة فعل سياسي بأوجه متعددة قد تكون عسكرية أو إقتصادية.. أو جميعها معا، ومنها على سبيل المثال الحرب على العراق حيث كذبت الولايات المتحدة بشأن إمتلاك العراق لأسلحة دمار شامل أو في طورها لإمتلاكها فغزت العراق واحتلته وسيطرت على موارده الطبيعية. ويمكن أن يكون الكذب الدولي مبرّرا لفعل سياسي متّخذ مسبقا كدخول الولايات المتحدة الحرب الثانية... أو لإظهار قوة ردعية في وجه عدو قوي أو العكس، لذلك يأخذ الكذب في السياسة الدولية أشكالا وأنماطا عديدة، ويمكن أن يكون الكذب على الشعب، أو على دول أخرى،عدوة كانت أم صديقة. ويمكن حصوله في دول ديمقراطية بحيث تصبح القيم والقوانين مجرد شعارات فارغة، أو في الدول الشمولية. إلّا أن السؤال الأكبر هو: لماذا، كيف، متى، وعلى من يكذب القادة؟

قبل الإجابة عن هذه الأسئلة أود الاشارة الى أن الكاتب يميّز بين سبعة أنواع من الكذب الدولي سنذكر الأكثر أهمية منها من دون أن نلغي مفاعيل الأسباب الأخرى. ومن هذه الأنواع نذكر:

١ – الكذب الاستراتيجي:

تعتمد هذه الأكاذيب بين الدول بشكل مباشر لسببين، السبب الأول هو تحقيق تفوّق استراتيجي. أما السبب الثاني فهو للحيلولة دون تحسّن وضع الدولة المكذوب عليها على حساب الدولة الكاذبة، وعادة ما يستخدم هذا النوع من الكذب ضد الدول المنافسة.

(٢٦) تعريف وشرح معنى خدّاعar-ar > dict > www.almaany ...

(٢٧) جون جي، ميرشيمر، لماذا يكذب القادة، ترجمة أ.د.غانم النجار،عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية الجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب ـ الكويت ٢٠١٦

(٢٨) الانجيل المقدس، الوصايا العشرة،

٢ – إثارة الذعر:

يقدم القادة على هذا النوع من الكذب تجاه شعوبهم بشأن قضايا سياسية خارجية مهمة ليحّثوا شعبهم على أخذ البعض منها على محمل الجد فيقومون بتضخيم هذه التهديدات، أما المقصود منها فهو إبقاء الشعب في حالة من التجييش وحثّه على تقديم التضحيات، كما وأن هذا النوع من الكذب مصمّم لإستخدامه أكثر في الدول الديمقراطية بسبب الدور الكبير للشعب وبالتالي للرأي العام،وهنا تظهر لنا جغرافية العالم الغربي الذي يسم نفسه بالديمقراطية، ذلك أن للرأي العام في تلك الدول دورا فاعلا في تغيير المواقف. هوذا الحال الذي كانت عليه الولايات المتحدة بعد اعتداءات ١١ أيلول، حيث احتلّت أفغانستان، ثم وبذريعة إمتلاك العراق لأسلحة دمار شامل قامت بغزوه رغم المعارضة الفرنسية في عهد جاك شيراك.

وفي هذه الحالة ورغم قلّة أو كثرة هذا السلوك الممارس، فإنه وفي أغلب الأحيان يكون هناك مكسّب شخصي للقائد يتمثّل في البقاء في السلطة، أو لمزيد من الهيمنة، قد تصل أحيانا الى القول أنا أو لا أحد، مع ما يعنيه البقاء في السلطة من مكاسب مادية وخصوصا في الدول العربية بشكل عام، وفي لبنان، وأليس هذا ما حصل بعد حركة الاحتجاجات في ١٧ تشرين، والعراقيل التي وضعت في وجه كل «مرشحي» رئاسة الحكومة، الى أن عاد الحريري إليها مجددا ؟

هكذا عاشت الشعوب العربية في حالة ذعر من أي إعتداء من الكيان الصهيوني، وتحت هذا الشعار «الخط الدائم»، أيقنت السلطة على حالة التعبئة النفسية الجماهيرية التعبوية والتجيشية، لشعوبها، ولا زالت، رغم إجراءات بعض الدول وسلوكها التطبيعي. وهنا تجدر الإشارة الى أن هذا الذعر مشترك بين الكيان الصهيوني والدول العربية، فكلاهما يعيش هذه الحالة التعبوية، خصوصا بعد دخول حزب الله على خط المقاومة الفعلية، وهو ما يعني أن سلوك القادة السياسي قد يخدم مصالحها في البقاء في السلطة، من تحت الطاولة كما يقال، أي أن يخدمان مصالحهم بوعي أم بغير وعي، مما يحافظ على وجودهم في السلطة. أليست هذه هي حال الكيان الصهيوني الذي أجرى عدة إنتخابات تشريعية لم يستطع من خلالها تشكيل حكومة، الأمر الذي بات يتكرّر بكثرة في هذه الآونة.

٣ – التغطيات الاستراتيجية:

الهدف من هذه الأكاذيب إخفاء سياسات فاشلة، أو سياسات مثيرة للجدل عن الشعب أو عن دول أخرى، وهذا النوع من الكذب يستخدم من أجل حماية الدول من الأذى وليس من أجل حماية مجموعة أو أفراد من السياسيين الغير كفوئين.

٤ – صناعة الأساطير القومية:

تستخدم من قبل القادة تجاه شعوبهم حول ماضي دولتهم أو في حال إنكار قيامها أو مجموعاتهم العرقية قد اقترفت ما اقترفته في الواقع أو إدعاء قيامهم بأشياء لم يقوموا بها أصلا، كما يمكن ان تطلق أكاذيب مشابهة بحق المجموعات المعادية أو المنافسة لها. أما الهدف منها فهو تحقيق أهداف معينة مثال على ذلك عندما روّجت إسرائيل بعد احتلالها لفلسطين أن الشعب الفلسطيني هو من قام بترك منازله أو باعوها باراداتهم. وقد يتحوّل الفعل السياسي الى إيديولوجيا قد تحمل تغييرا بنيويا، في الموقف العام للسلطة الحاكمة، متجلّيا أولا بأول بممارسة سلوكيات تخدم هذا الموقف للسلطة، فعلى سبيل المثال، تأتي مقاطعة الشركات السعودية للبضائع التركية، كسلوك فرضته السلطة الحاكمة في السعودية بسبب الإختلاف

في المواقف السياسية في المنطقة، بدءا من محاصرة قطر، وصولا الى التدخل التركي في ليبيا ومصر ولبنان... ولقد ذهب الموقف الرسمي السعودي الى عدم إعتبار فترة الحكم العثماني خلافة، بل إحتلال، وهو موقف نوعي مختلف كليا عن ما هو متعارف عليه سابقا. ولذلك أيضا لجأت السلطة السعودية الى إظهار بعض ممارسات العثمانيين القمعية كسلوك سياسي لتأكيد هدف الفعل السياسي المتغيّر للملكة تجاه تركيا.

٥ – الأكاذيب الليبرالية:

تطلق هذه الأكاذيب عندما تتصرّف الدول أو الأنظمة الليبرالية بشكل وحشي يتناقض مع منظومة المبادىء المتعارف عليها بشكل واسع عالميا في القوانين الدولية، لذلك نجدهم يختلقون لشعوبهم وللعالم قصصا مثالية بهدف التمويه على تصرفاتهم غير المتلائمة مع القوانين والأعراف الليبرالية، ولعل من أهم من اعترض على مسألة الديمقراطية،هو «جاك رانسبير»، في مؤلفه كراهية الديمقراطية، حين اعتبر أن الحجج التي ترفعها الحملات العسكرية الهادفة الى التوسّع العلمي للديمقراطية إنما تكشف عن المفارقة التي ينطوي عليها الاستخدام السائد لهذه الكلمة، حيث يبدو وفق رأيه أن الديمقراطية تواجه خصمين، الأول، عدو محدد بوضوح هو حكم التعسّف والاستبداد، وهذه المواجهة تخفي مواجهة أخرى، ذلك أن الحكم الديمقراطي الجيد هو القادر على السيطرة على شرّ إسمه ببساطة الحياة الديمقراطية.

وهنا تتماهى حسب تعبيره الحياة الديمقراطية، مع المبدأ الفوضوي الذي يؤكد سلطة للشعب، وهنا يصبح شعار الفوضى الخلاقة التي انتهجتها الحكومات الاميركية تجاه الكثير من الدول، كذبة كبيرة جدا على الدول وعلى شعوب هذه الدول، والغاية طبعا كانت ولا تزال هي السيطرة على موارد هذه الدول الطبيعية.

طبعا ليس من الصعب ربط مسألة الديمقراطية بالليبرالية التي قامت أساسا على فكرة «دعه يعمل دعه يمر» أي على الحرية الفردية التي سرعان ما انعكس على الحريات بشكل عام. وفي هذا المجال، يذكر مؤلف كتاب كراهية الديمقراطية وبنوع من السخرية، كيف احتفلت صحيفة ترفع مشعل الليبرالية الإقتصادية، في العام ٢٠١٢، وتحت عنوان: «الديمقراطية تنبثق من الشرق الأوسط» بعيد الانتخابات العراقية وفي إشارة لها، وكذلك بعيد إغتيال الرئيس الحريري وما وصفته الصحيفة بالمظاهرات المعادية لسوريا في بيروت». هكذا نجد المسؤولين الأميركيين يبرّرون عمليات النهب في بغداد بعيد سقوط نظام صدام، بإدعائهم أنهم منحوا الحرية للشعب كما منحوه حرية الشر، فكيف تستقيم هذه الحريات مع بعضها، وما هو نوع السلوك السياسي الممارس في هذه الحالة، وما هو الفعل السياسي البعيد المدى، والمنتظر، بعد هذه السلوكيات التي لا تحترم لا القيم الليبرالية التي ورثناها من الثورة الفرنسية، ولا القيم الإنسانية التي ندعو إليها الآن...

ومن غير الدخول في الأمثلة الكثيرة التي يمكن ذكرها كسلوك سياسي كذب، والتي ذكرها الكاتب في مؤلفه، والتي يمكن أن نذكر منها مثلا الحرب على العراق حيث اعترف الرئيس الاميركي كما وزير خارجيته أن المخابرات كذبت عليهم، وكذلك فعل رئيس الوزراء البريطاني طوني بلير، إضافة الى الحرب في أفغانستان، وغيرها الكثير من الحروب المفتعلة حول العالم، والتي أوردها المؤلف، والتي يمكن تعميمها على قادة دول أخرى، فاني أرى أن أتحدث عن نوع آخر من الكذب الذي يقوم به

القادة تجاه جماهيرهم، حيث يعتبر الكذب سلوكا سياسيا له أهدافه وغاياته أيضا، مع العلم أن كذب القادة على شعوبهم نسبيا يعتبر أسهل من الكذب الدولي باعتبار أن علاقة الدول في ما بينها لا تقوم على الثقة لا بل يشوبها مبدا الشك والريبة، ولأنها تعيش في عالم فوضوي مليء بالأخطار ولضمان مصالحها تلجأ لأسلوب الخداع والكذب.

أما الكذب الداخلي فهو يتمّ من خلال سيطرة صنّاع السياسة على أجهزة المخابرات التي تمكّنهم من الحصول على كم من المعلومات والتي يصعب أو لا يمكن لعامة الناس من الحصول عليها أقلّه على المدى المنظور. وبالتالي يصبح بمقدورهم التلاعب بتدفُق تلك المعلومات للناس بطرق وأهداف مختلفة، وطالما أن معظم الناس ميالون الى تصديق حكّامهم إلّا في حال وجدت دلائل قوية بأتها تتعرّض للخداع، ولأنه من البديهي أن وظيفة الحكومات الأساسية هو حماية مواطنيها يصبح الكذب الداخلي أسهل من الكذب الدولي.

ثمة أمر آخر يثير الريبة في السلوك السياسي والمواقف السياسية، وهو إزدواجية المعايير فمثلا تؤكد الدول الغربية على حرية التعبير، لكنها في الوقت ذاته تمنع حرية التعبير تجاه بعض الأحداث التاريخية. والنموذج الفرنسي مثال حيّ عند كتابتي لهذه السطور في مسألة الرسوم المسيئة للنبي محمد، إذ اعتبر الرئيس الفرنسي وعلى أثر حادثة مقتل الأستاذ على يدّ طالب مسلم شيشاني، أن حرية التعبير مكفولة في فرنسا، حتى وإن طالت مقدسات الآخرين، ومع ذلك يحاكم القانون الفرنسي كل من يشكّ بالهولوكست أو المحرقة، بالسجن أو بغيره من العقوبات، وهو ما حصل مع المفكّر روجيه غارودي. وكذلك الأمر بالنسبة للإرهاب، إذ نقع في الكثير من المواقف على إزدواجية المعايير، التي تخدم مصلحة الدولة وفق ما تقتضيه مصالحها، ويعبّر عنه بتصريحات قادتها.

وفي هذا الإطار يمكن لنا الاستشهاد بتصريح وزير خارجية فنلندة حول الحادثة المذكوره أعلاه، وربطا بازدواجية المعايير وبحسب وسائل الاعلام فقد صرّح: «أنا.. لم أعد أفهم شيئا.. فعندما نسخر من شخص أسود يقولون لنا هذه عنصرية.. وعندما نسخر من يهودي يقولون لنا هذه معاداة للسامية.. وحتى عندما نسخر من إمرأة يقولون لنا أنت ضد الجنس الآخر. ولكن عندما نسخر من مسلّم فهذه.. حرية التعبير».

٦ – الخلاصة

يمكننا أن نستنتج مما تقدّم أنه من الضروري التمييز في علم الاجتماع السياسي بين الفعل السياسي الهادف، والسلوك السياسي الظرفي أو اللحظوي، مع الأخذ بعين الاعتبار، أن تكرار السلوك السياسي قد يتحوّل ولهدف ما، الى فعل سياسي. وهنا أيضا لا بدّ من الاشارة الى أن الفعل السياسي مرتبط ليس فقط بالأهداف وإنما بالواقعية السياسية، التي تفترض أحيانا التنازلات في المواقف السياسية شرط ألا تكون هذه التنازلات مبدئية، تظهر تحوّلا في الايديولوجيا السياسية للقوى السياسية التي تمارس الواقعية السياسية. كذلك يمكننا الربط بين الكذب كسلوك سياسي تمارسه الدول كما يمارسه الأفراد، وكما تمارسه النخب السياسية، وبعض من أنواع هذا الكذب هادف. وأتمنى أن يفتح هذا البحث آفاقا جديدة لدراسة السلوك السياسي في لبنان وغيره من الدول العربية، علّ تلك الإضاءات تساهم في الخروج من بعض أزماتنا، من خلال الإضاءات هذه.